

الخلود

للدكتور إبراهيم يومى مذكور



أمل حلو زاد التعلق
به فلبس ثوب الحقيقة ،
وخيال عذب طاب لنا أن
نسبح وراءه فاكتمس بكساء
الواقع ، وغيب شغفنا
بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه
في مظهر الحاضر ، وسلوة
تدلى بها عن الحرمان
أو عثور الجدوسوء الطالع ،
وثار من الموت ذلك
الحصم العنيد الذى يحمل
الشباب على الرحيل في

عنقوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه .
فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس
وشقاء وآلام ووبلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم في سيل
فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله
عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة
أول ملهم بتجدها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول
باستئناها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد
بصور شتى وأشكال متباينة هي في جملتها صدى لرغباته ونزعاته
وميوه وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها .
فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل
وسفك الدماء الخلود على أنه عودة للانسان فى شكل مارد
جبار شيطان رجيم يثار لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض
المتحضرين ضربا من اليقظة يرقل فيه المرء فى حبل السعادة
وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينة والزخرف
ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورتها فى
صورة أسمى ، وكسته بكساء أخفم ، وأغدقت على الحياة المقبلة

متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع
العامة والدعاه وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبق للخلود حلاوة الأمل ففسير وراءه سيرا
أعمى ، وعذوبة الخيال فتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ،
وحرمة الدين فتؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب
ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه
وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا
من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفة ، ويبحث
ويحلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما
لا يخضع لمبادئ القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى
موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يفهم سره وغايته ويرهن
على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود
كلمتها بالإيجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف
لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر
والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة
الحاضرة وقوانينها لم يفهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير
بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يدتروا فيه
ويعيدوا ويعترضوا ويحيوا ، فهم من فلسفتهم الدينية فى صميمها
ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم
أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحيين والمساكين بين
مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من
هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع
الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى
هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان
اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية
منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع ، ثم لم يقنع بهذا
فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هي « فيدون » . وفيها يجرى
ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله
من الاتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى متبدع
يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم
بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المهتم البرىء الذى

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحي الذي يسعى إلى الموت في خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث عن خلود الروح في آخر يوم من أيام حياته فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة في حوارهِ من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف واقتان في وسائل الأثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن نلاحظ أولاً أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الأصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد . ومادام الموت والحياة ضدّين فهما متعاقدان . وقدّما قالت الأرفيه والفيثاغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ؛ وبهذا يخرج الحي من الميت كما يخرج الميت من الحي ، وتبقى النفس رحالة منتقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونسلم ثانياً مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ؛ والشيء وحده هو الذي يدرك الشيء . فلا بد أن يكون للنفس ما للثل من ثبوت وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومناقية للموت بطبيعتها ، فهي بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يتجمع في ماهية واحدة ضدان ؛ فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ، وأن لا تتسأل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون في برهنته ؟ إذا اخترنا أدلته لم نتردد في أن نجيب بالسلب ، فإن فكرة صدور الصد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحداً يسلم اليوم مع الأغريق أن الإنسان لا يدرك إلا ما يشابهه . فإننا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الإنسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفس القديم الذي كان يعد النفس في آن واحد مصدر الحياة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فإنه يصرح على لسان سمباسي أن العلم بحقيقة الخلود يمتنع أو جد عسير في هذه الحياة . وجدير يبحث كهذا أن يوضع في قالب

القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين وسواء أوفق أفلاطون في برهنته أم لا فإنه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا جب إلى الخلف السير فيه ، فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثراً به في هذا الصدد ابن سينا الذي قد يردد بعض أدلته أحياناً أو يؤيدها ويدعمها أحياناً أخرى ، لاسيما وقد توفر لديه ما لم يتوفر لدى أستاذه ؛ فقد وقف على الوحي الإلهي الذي صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة في الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزوماً عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفي خيال حلوهو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوي ومقامها في هذا العالم الفاني ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع محجوبة عن كل مقلة ناظر - وهي التي سفرت ولم تتبرقع - وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات توجع

ان كان أهبطها الإله الحكمة طويت عن الفذالليب الأروع فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع وتعود عالمة بكل خفية في العالمين غرقها لم يرفع ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأتي ألا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبت اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس وهي جوهر بسيط لا يمكن أن تشتعل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أي استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم قى ، فإن صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد في شيء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر في شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هي المتصرقة في البدن والمديرة لأمره ، ولن ينقلب الأمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً .

يد أن حظ ابن سينا في هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فإن الجوهر البسيط الذي يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) إلى هذا التهاافت في البرهنة والقصور في الإثبات . فرفض في كتابه ، نقد العقل المجرد ، الأدلة التي تساق لإثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يبتدى إلى شيء يقينى في دائرة الأمور المغيبة ؛ وفي هذا ما يسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان في جانبه ، وما يهيئ للوحي والألهام الفرصة أن يكمل نقص البحث والنظر . خصوصاً والتبعة الأخلاقية لإقيامها بدور الثواب والعقاب والحساب والمستوليه ، والواجب في حاجة ماسة إلى تأييد الدين ونصرتة . لهذا نرى (كانت) يعود في كتابه ، نقد العقل العملي ، فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن إثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمي الذي ننشده والسعادة الحقة التي نسعى إليها لا سبيل إلى تحقيقهما في حياتنا الحاضرة القصيرة .

فإن شئنا أن يكون للواجب الذي تنادي به قيمته والأخلاق التي ندعو إليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما العدالة تأبى كل الإباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الإعدام ، وأن يستوى البر والفاجر في مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأني بك أنت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار إليه من قبل شيخ الأكاديمي في جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقي ليس أكثر إقناعاً من سابقه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب إلى فكرة الخلود وأكثر تلازماً مع طبيعتها وأميل إلى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراماً وتقديساً لمبادئ أخرى .

ابراهيم مذكور

لِسْنَا الْعَرَبِ

لابن منظور الإفريقي المصري

مرتباً ترتيباً حديثاً ومصححاً تصحيحاً علمياً على أصوله الخمسة وهي الصحاح للجوهري وحواشيه والنهاية لابن الأثير والجمهرة لابن دريد والمحكم لابن سيده والتهذيب للزهرى

ارسل ٢٥ قرشاً صاغاً باسم الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى مدير دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف - بعطفة الشوشترى خلف بلائشى بالموسكى - بصلك الجزء الأول منه وتعد مشتركا في الجزء الثانى

ملاحظة : عن الجزء قبل الطبع ١٠ قروش و ١٥ قرشاً بعده ، وأجرة البريد لمن في القطر المصرى قرشان صاغاً وضعه لمن في الخارج .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها في هذا المضمار وأن تنزل في هذا المأزق الحرج . في مقدورنا أن نقول إنه يمكن أو محتمل